الدرس الثاني

منهجية البحث التاريخي(1)

أولا: البحث العلمي أداة رقي المجتمعات:

إن البحث العلمي اليوم أصبح جزء رئيسا من حياة أية أمة تتطلع إلى الرقي والازدهار، ومع ازدياد الحياة تعقيدا تزداد المسائل التي نواجهها صعوبة في إيجاد الحلول المناسبة لها، مما يدفع بنا إلى التركيز على البحث العلمي، فهو طريقة منظمة لاكتشاف حقائق جديدة، والتثبت من الحقائق القديمة، والعلاقات التي تربط فيما بينها، أو القوانين التي تحكمها.

لقد وظف الإنسان البحث العلمي لحصوله على المعرفة ومساعدته على حل مشكلاته، والإجابة على تساؤلاته، والعمل على زيادة قدرته على فهم وتفسير الأشياء والأحداث والظواهر المختلفة في البيئة من حوله، وعلى تعزيز قدرته في استثمار البيئة وتحسين حياته.

إن انجازات الأمم اليوم تعزى إلى نتائج البحث العلمي التي أخذت بها، وأن كل ما توصلت إليه الإنسانية من اختراعات واكتشافات كانت بفضل استخدام أسلوب البحث العلمي، مما يحتم العمل على تدريب المجتمع بجميع أفراده ومؤسساته على استخدام هذا الأسلوب في جميع مجالات حياتهم ومراحلهم العمرية والتعليمية، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الإنفاق المالي على الكوادر الإدارية والفنية، يساهم في توفير أساسيات البحث العلمي.

والبحث العلمي هو أرقى النشاطات العقلية التي تسعى لفهم ظاهرة معينة باستخدام المنهج العلمي بقصد الوصول إلى الحقائق التي يمكن الاستفادة منها أو التحقق من صحتها. فالتفكير نشاط عقلي أدواته الرموز، صور ذهنية، مقاييس، ألفاظ، تعبيرات وصيغ رياضية، وبالتالي فهو يشمل جميع العمليات العقلية والتصورات وعمليات الحكم والفهم والاستدلال والتعليل والتعميم. وكذلك فإن البحث يشمل التصنيف والتنظيم والتأليف وجمع

المتفرق، وحسن الصياغة والدراسة والتحليل، والابتكار والإبداع والتجديد. ويعني هذا أن البحث العلمي يعتمد على التفكير بشكل كبير، ولذلك فالعلاقة بين البحث العلمي والتفكير علاقة تلازم، وبحسب قوة التفكير وتمكنه من مهارات التفكير الصحيح تتحقق قوة البحث، وتعلو قيمته المعرفية وأثره في الساحة العلمية.

وبناءا عليه، جاءت العناية الشديدة بالعقل والتفكير، وأهمية تنمية مهاراته المختلفة، للتلازم الشديد بين التفكير الناجح والبحث العلمي النافع. بمعنى آخر، إن نقطة البدء في كل بحث علمي إنما تكمن في التفكير العلمي المنظم فحسب.

<u>ثانيا: منهجية البحث</u>:

ارتبط تقدم البحث العلمي وتحصيل المعرفة العلمية بضرورة وجود منهج للبحث والتحصيل، فإن غاب المنهج خضع البحث للعشوائية وأضحت المعرفة غير علمية. ولقد ارتبط تطور العلم تكنولوجيا ونظريا وتقدم تراث المعرفة الإنسانية واتساع مجالاتها بنوع المنهج المستخدم في التحقق منهما وتحصيلهما. ومن المؤكد أن المعرفة الواعية بمناهج البحث العلمي تمكن العلماء الباحثين من إتقان البحث وتلافي كثير من الخطوات المتعثرة أو التي لاتفيد شيئاً.

فما المنهج إذن؟. في معاجم اللغة، تشير إلى النهج والمنهج والمناهج على أنها الطريق الواضح. ونهج الطريق، أنهج واستنهج وضح. وكذلك نهج الطريق وأنهجه يعني أبانه وأوضحه. ونهجه: سلكه.

أما في اصطلاحا فهو باختصار: نسق من القواعد، والضوابط التي تركب البحث العلمي وتنظمه. ويعرف الدكتور عبد الرحمن بدوي المنهج بأنه: "الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة ".

والمنهج (والمناهج) تطلق على الطرائق المتبعة في البحث والاستدلال، ويستخدم المنهج ويراد به، أيضا الأسلوب في العرض. والمنهج آلية معينة في البحث تسلك غرض الوصول للحقيقة. وقد أختلفت أراء الباحثون في تعريف المنهج، ومنها نذكر:

1. **المنهج هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة مجموعة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة.**
2. **المنهج وسيلة محددة توصل إلى غاية محددة.**
3. **المنهج هو الطريق الواضح في التعبير عن شيء أو في عمل شيء أو في تعليم شيء طبقاً لمبادئ معينة وبنظام معين، وبغية الوصول إلى غاية معينة**
4. **المنهج هو خطوات منظمة يتخذها الباحث؛ لمعالجة مسألة أو أكثر، ويتبعها للوصول إلى نتيجة**
5. **المنهج هو السبيل الفكري، والخطوات العملية التي يتبعها الباحث في مساره، بقصد تحصيل العلم.**

وهذه التعريفات الواردة سلفا وغيرها من التعريفات الأخرى، مؤداها واحد، والاختلاف فيها اختلاف في التعبير لا غير مع شمول في بعضها.

وتعد دراسة المناهج من أخصب الدراسات الحديثة ذات الفائدة الكبرى في متابعة تطور العلوم من ناحية، وفي دفعها للإمام من ناحية أخرى . لأن تقدم البحث العلمي رهين بالمنهج، وبذلك يمكن تفسير الأدوار المتفاوتة لتطورات المعرفة العلمية، فما انتكس العلم إلا بسبب النقص في تحديد المناهج العلمية وتطبيقها، وما نما وازداد أصالة إلا بالدقة في تحديد المناهج. فالعلم لا يكون علماً إلا بالمنهج الذي يستخدمه، بل يذهب البعض إلى أن العلم منهج قبل أن يكون موضوعاً أو مجموعة من المعارف أو النظريات، لأننا نستطيع أن نتوصل إلى كثير من المعارف التي لا تكون علمية بدون أن نستخدم منهجاً علمياً بذاته . وقد غدا الاهتمام بالمنهجية والفكر المنهجي سمة العصر ، حيث أصبح لكل علم

منهجه الذي يضبط كلياته وجزئياته، فلا أحد ينكر ، أو يستطيع أن ينكر، تقدم العالم في مناهج البحث والتفكير في فروع المعرفة المتعددة.

وعليه، فالمنهج للعلوم كالأساس للبناء إذ يؤدي عدم وجوده إلى الاضطراب وعدم التوصل إلى نتائج صحيحة لتعارض القضايا واختلاف المسائل. وذلك، لأن المنهج في مجال الدراسات الأكاديمية يعني: الوسيلة أو الآلة التي بها يقوم الباحِث على دراسة موضوعِه، وتحليل مادته العِلمية وفق أسلوب يعنى على ذلك من قبل المنهج الفني، أو النفسي، أو التاريخي، أو الاجتماعي، إلى آخر تلك المناهج المعروفة في مجال الدراسات النقدية، وبذلك يكون التمييز واضحا بين الخطة والمنهج مع ما بينهما من تقارب.

أما مصطلح المنهجية (Méthodologie) تعني علم المنهج أو علم مناهج العلوم، أما من ناحية الاصطلاح العلمي، فتعني العلم الذي يدرس الطرق المستخدمة في العلوم للوصول إلى الحقيقة. وهو علم يندرج ضمن موضوعات فلسفة العلم أو الإبستيمولوجيا (Epistémologie). وعليه، إن المنهجية هي علم يعتني بالبحث في أيسر الطرق للوصول إلى المعلومة مع توفير الجهد والوقت، وتفيد كذلك معنى ترتيب المادة المعرفية و تبويبها وفق أحكام مضبوطة لا يختلف عليها لهل الاختصاص. ويمكننا وضع تعريفا مبسطا لها على أنها: "إتباع مجموعة من المعايير والتقنيات والوسائل قبل البحث، وفي أثنائه انجازه"،

والمنهجية هي الطريق التي يتبعها المؤرخ من أجل الوصول إلى الهدف المنشود، وهي بذلك مجموع الأدوات التي يستخدمها في تقديم البراهين والأدلة والحجج للتأكد من صحة أو عدم صحة الإشكالية التي يطرحها. ولابد أن نعلم أن المنهجية، كالمنهج، وصفيَّة؛ لأنها تبين كيف يقوم المؤرخ بأبحاثه، لكنها تختلف عنه في أنها معيارية في الوقت نفسه؛ لأنها تقدم للمؤرخ مجموعةَ الوسائل والتقنيات الواجب إتباعها.

وهنا، لابد من الإشارة إلى أن مناهج الدراسة تختلف من علم إلى آخر، فللأدب مناهجه، وكذلك للغة، وللتاريخ، والبيولوجيا، والرياضيات، وبقية العلوم الأخرى، أما المنهجية فواحدة عموما. فهي عبارة عن معاييرُ وتقنيات يجب الالتزام بها لتوفير الجهد، وعدم إضاعة الوقت، وتسديد الخُطى على الطريق العلمي الصحيح. فأضحت عموما جملة قواعد ثابتة، وهي بذلك على العكس من المنهج او المناهج التي ارتبطت بالمنطق وطرق الاستدلال والاستنتاج، ولذلك فهي تتطور وتتعدل من حين لآخر.

على العموم، بعد تعريفنا لمصطلحي المنهج والمنهجية، لزم علينا أن نعرف مواطن الالتقاء والافتراق بينهما. فإذا كان المنهج هو طريقة للوصول إلى هدف معين. فإن المنهجية هي علم المناهج الصحيحة، أي أنها تبحث في القوانين والشروط الضرورية للوصول إلى منهج صحيح، يقبله المشتغلون في ميدان التاريخ. وبالتالي، تصبح المنهجية بالنسبة للمشتغلين فيه هي فلسفتهم في التفكير، واتجاههم العام أو طريقتهم (المفضلة) في التفكير و العمل.

ولكن كيف يتم وضع أو صياغة هذه الفلسفة أو الرؤية الجماعية ؟. يقوم علم المناهج، على فكرة بسيطة، مفادها أن العلوم تتشابك في مناهجها بالضرورة؛ نظرا إلى تشابه الطرق التي يتبعها العقل البشري في تحصيله للحقيقة في العلوم. وأنه بإمكان الباحث المتخصص في علم المنطق(الفيلسوف)، والعارف بالمناهج الرئيسية، أن يتوصل للملامح العامة والخصائص الكلية المشتركة بين المناهج المتبعة في فروع العلم المتعددة. أي يكشف عن الطرائق العامة التي يسلكها العقل الإنساني في بحثه عن الحقيقة، بتأمله في المناهج التي سار عليها العقل في تحصيله للعلم في مختلف فروع نشاطه. و قد يتوج ذلك، بصياغتها على هيئة مذهب في العقل الإنساني من حيث طبيعة اتجاهاته في البحث عن الحقيقة.

وبمعنى آخر، يمكننا القول أن الانتقال من المنهج إلى المنهجية، هو الانتقال من أسلوب العالم إلى أسلوب الفيلسوف، فالعالم قد يتبع منهجا معينا في دراسة موضوع معين، يعتقد أنه هو الطريق الذي يفرضه العقل أو الموضوع

أو هو الطريق التقليدي(المرسوم). ثم يأتي الفيلسوف على إثر العلماء، فيقارن بين مختلف المناهج التي اتبعوها أو ابتكروها؛ لدراسة موضوع معين. ليكتشف العوامل التي تيسر النجاح أو تسبب في الفشل وغيرها من الأمور. ليستخلص من كل ذلك مجموعة من القواعد والإرشادات- هي ما نسميه بالمنهجية -، يقترح على المشتغلين بذلك الحقل العلمي، أو ذلك الصنف من البحوث العلمية أن يتبعوها و يحذوا حذوها باعتبار أنها تؤدي – على الأرجح – إلى النتائج المرجوة.

و يستفاد من هذا، أن المنهجية ليست قوانين أو مبادئ عامة كلية، يجب على المتخصصين في ميدان من الميادين العلمية، إتباعها و التقيد بها حرفيا أثناء بحوثهم و دراساتهم؛ بل هي مجرد نصائح و إرشادات، يمكن الأخذ بها كما يمكن تعديلها أو تجاهلها، فهي ليست ملزمة لأحد. فالمبتدئ في التاريخ، قد يبدأ عمله باستعمال مناهجه الخاصة، غير أنه عندما يثري معارفه وخبرته، بالاحتكاك بزملائه في العمل أو المهنة أو الحرفة، يأخذ في الابتعاد عن مناهجه الخاصة، ويتبنى المنهجية العامة لأهل الاختصاص. ولكنه عندما يبلغ درجات عالية من الاتقان والخبرة والشهرة والقوة، يشرع من جديد في الابتعاد عن المنهجية العامة، ليشق لنفسه طريقا أو منهجا، يصبح بدوره- إن وجد الأنصار و الأتباع- منهجية عامة. في ذلك الميدان.

والمهم هنا، أن نتذكر أن المنهجية قد تكتسي طابعا إلزاميا في معظم الأحيان وليس دائما، لأنها في الغالب تنبع من الثقافة السائدة أو الإيديولوجية المهيمنة على الاختصاص؛ وقد يلتزم بها العامة أقل من الخاصة (الذين قد يمتلكون قدرات على مقاومتها و مقاومة أنصارها).

خلاصة القول، إذا كان المنهج عمل عقلي لا يمكنه أن ينفصل عن العوامل الذاتية والموضوعية، المؤثرة في الشخص الذي يأخذ بالمنهج المذكور، مثلما أشرنا من قبل. فمن الطبيعي أن تعكس المنهجية؛ باعتبارها علما في المناهج، أي في تلك العوامل الذاتية والموضوعية، وجهة نظر الفئة التي ينتمي إليها عالم المناهج، وتمثل اختياراتها في الحياة وتوجهاتها وأهدافها، أو رؤيتها للحياة والناس والمجتمع. أي تمثل إيديولوجية معينة، قد تشكل ضغطا على

الؤرخين، وترغمهم على الأخذ بوجهات نظرهم. و بالتالي، فإذا أردنا البحث عن المنهجية، فسنجدها كامنة في صلب اتجاه المؤرخ أو وجهة نظره أو فلسفته في العلم والبحث.